مقدمة
Introduction

كان أحمد شريف، البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً من بنغلاديش، ويعمل سائق سيارة أجرة، على دراية بمداخل ومخارج منطقة مانهاتن في مدينة نيويورك تماماً مثلما ما يعرف اسمه. وعلى أية حال، فإن عمله يتطلب منه توصيل الركاب إلى وجهاتهم، وهم في الغالب ممن يجهلون الممرات المربكة في هذه الغابة الإسمنتية. وعلى مدى خمسة عشر عاماً من مزاولة هذه المهنة، مرَّ شريف على أعداد لا حصر لها من أسماء الشوارع والأحياء التي تربك أكثر السائقين خبرة. كما تعرّف شريف في هذه المدة الطويلة على الآلاف من الناس على نحو عرضي – أصدقاء الخمس دقائق – الذين جلسوا بجانبه على المقعد الجلدي الأزرق، وتحدثوا معه عن الهزائم المتتالية لفريق الميتس The Mets، أو جلسوا يلعنون مشاريع البناء المتواصلة، بينما ينظرون بإعجاب إلى الزينة المتدلية من مرآة الرؤية الخلفية لسيارته.

في تاريخ الرابع والعشرين من أغسطس (آب)، وأثناء قيامه برحلته الأولى في فترة عمله المسائية، لمح شريف شاباً بديناً يتميز بوجه طفولي وقد مشّط شعره الأشقر إلى الجهة اليمنى، وكان يمشي متمهلاً باتجاه تقاطع الشارع الثاني مع الشارع الرابع

obeikandi.com

والعشرين المتجه شرقاً. كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً، وعادة ما يكون تقاطع الطرق هذه مزدحماً، إذ يعد من الأماكن التي تلتقي فيها مقاهي القهوة المتصنعة للفن، والمباني السكنية الشاهقة، والمدارس التخصصية، وتمتلئ بالشبان مثل مايكل إنرايت Michael Enright الذين يسارعون بعد الانتهاء من الدوام في مدارسهم إلى الهروب من ضجيج المدينة في الوقت المناسب؛ بغية قضاء وقت ممتع في مكان أكثر هدوءً. ولكي يستقل إنرايت السيارة إلى الحرية، لوّح بيده إلى سيارة أجرة، فإذا بشريف يتوقف بجانب الرصيف مقابل مخبز جيه دي؛ بغية الظفر بهذا الزبون الذي استقل المقعد الخلفي للسيارة.

كانت وجهة إنرايت تقاطع الشارع الثاني والأربعين مع الشارع الثاني Forty-second and 2nd Avenue، وهذه التوصيلة التي تبعد ١٤ صفاً من المباني قد تكلفه ذات القيمة في حال اشترى مشروبين من مقهى ستاربكس، الموجود عند زاوية الشارع في نهاية رحلته التي تستغرق ثماني دقائق. لكن حتى وإن عرض إنرايت على شريف كوباً من القهوة، فإن هذا الأخير كان سيرفض، إذ يصادف ذلك التاريخ شهر رمضان، وكان شريف أباً لأربعة أولاد، ويعيش في جامايكا في منطقة كوينز، وهو من المسلمين الذين يطبقون تعاليم دينهم، ويصوم من الفجر إلى المغرب خلال هذا الشهر الفضيل. كان عليه أن يعمل فقط لساعتين إضافيتين قبل أن يتسنى له أن يأكل أو يشرب.

ركب إنرايت السيارة وحيّا شريف بالتحية العربية "السلام عليكم." لم يأبه شريف كثيراً بتحية إنرايت، إذ إنه من غير المعتاد أن يقوم شاب أبيض في الحادي والعشرين من عمره، ولا يبدو من أصول عربية، باختيار هذه التحية كبداية للحديث. وعلى أية حال، فإن هذه التحية وضعت السائق البنغالي تحت عباءة كل أولئك الرجال الآخرين، داكني البشرة الذين يُعدّون من العرب، فلغته الأصلية هي البنغالية، كما أنه يتحدث الإنجليزية على نحو جيد إلى حد ما.

"كيف حال رمضان معك؟" هكذا سأل إنرايت السائق شريف بعد أن حيّاه. "حسناً"، أجاب شريف وهو يعي في تلك اللحظة أن التحية السابقة التي ألقاها طالب الدراسات السينمائية إنما هي تأكيد على أن شريفاً مسلم، وذلك أكثر من أي شيء آخر.

كان إنرايت يرى في رمضان أمراً مضحكاً ومنافياً للعقل أيضاً، وأخبر شريف بوجهة نظره هذه بوضوح. ولكن أدب الحديث الذي كان سمة اللحظات الأولى لتعارفهما سرعان ما تحول إلى تهجم لاذع من جهة واحدة. آثر شريف الهدوء عند توقفه عند الإشارة الضوئية، فقد شعر أن الحديث انتهى عند هذا الحد. وعلى الرغم من أنه استاء من سماع الشاب الذي تلفَّظ بالإساءة إلى دين الإسلام – أي دينه – إلا أنه رأى أنه من الأفضل عدم الدخول مع الشاب في جولة من الصراخ. فقد كان الناس في مدينة نيويورك منقسمين بشدة حيال تشييد مركز إسلامي مرتقب، أو ما يفضل بعضهم تسميته "مسجد الطابق صفر"، Ground Zero Mosque وفي مناخ كهذا، كان هناك ما يكفي من مشاعر العداء للمسلمين. وللأسف كانت هذه المشاعر السلبية أمراً شائعاً.

يتذكر شريف الحادثة ويقول: "ثم توقفت عن الحديث معه، وتوقف هو الآخر أيضاً." كانت هناك مسافة قصيرة تصلنا إلى وجهة إنرايت عندما انكسر الصمت أخيراً. صرخ طالب الفنون قائلاً "اعتبر هذه المنطقة نقطة تفتيش، نعم، نقطة تفتيش ويجب عليَّ أن ألقيك أرضاً." أوقف شريف السيارة وهو في حالة من الذهول، وذكر أن "الشاب كان يتحدث وكأنه جندي". في الواقع، كان إنرايت جندياً حقاً، ولكن واجباته في ذلك اليوم، وهو يوم الثلاثاء لم يكن لها صلة بالفترة الزمنية التي أمضاها مع كتيبة ليذرنيك تاسكفورس Taskforce Leatheneck في مقاطعة هيلمند في أفغانستان.

ومع ذلك، فقد كان ينظر إلى مهمته تلك بذات الطريقة تماماً. إذ تقتضي وظيفته حماية البشرية.

مدّ إنرايت يده إلى جيبه وأخرج حقيبة جلدية، عبارة عن مجموعة من السكاكين المطوية، وشفرات حادة أخرى تماماً كتلك التي يستخدمها الكشافة. وبعد أن قام بفتحها، مدَّ إنرايت ذراعه عبر الحاجز بين مقاعد السيارة ووضع النصل الحاد على حنجرة شريف. سالت كمية من الدم الكثيف على حضن شريف الذي استدار وهو في حالة من الذعر، وواجه خنجر إنرايت الذي لا يرحم مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت الضربات موجهة مباشرة إلى وجهه، وذراعه، وأصابعه. صرخ شريف قائلاً "أرجوك، لا تقتلني. لقد كدحت طويلاً، ولدي عائلة"[1].

وعلى الرغم من أن السيارة كانت تتحرك ببطء، إلا أن ذلك لم يمنع إنرايت من الاندفاع عبر الباب الخلفي للسيارة على نحو جنوني ملتمساً المساندة، وعندما جرى اعتقاله في نهاية المطاف، عُثر معه على زجاجة فارغة من الويسكي. كان يصرخ إلى رجال الشرطة قائلاً "ذلك الرجل حاول سرقتي. كان يريد أن يسلبني مالي، وكنت أدافع عن نفسي. ما الخطأ الذي ارتكبته؟ لقد عدت لتوي من أفغانستان. أريد أمي"[2]. كانت ذراعاه مقيدتين بالأصفاد خلف ظهره، وهو يلوح بهما في نوبة من الغضب. خاطب إنرايت رجال الشرطة بذات التحية العربية التي كانت البداية لرحلته الدموية،"السلام عليكم". ثم سأل ضابطاً آخر: "هل تحب لحم السلامي واللحم المقدد؟" وذلك قبل أن يشرح له بأن الشرطة هي من تتحمل اللوم جراء السماح للمسلمين "بتفجير المباني في بلده"[3].

كان شريف مسروراً كونه نجا من الهجوم. ولكن الحادثة التي أصابته بالهلع خشية حدوثها مرة أخرى، جعلته ينقل عائلته من منطقة مانهاتن في نيويورك إلى مدينة

بوفالو Buffalo. وقد جاءت التقارير المتعلقة بجريمة إنرايت، التي صنفتها لاحقاً كإحدى جرائم الكراهية، على أنها نتيجة لحالة الثَّمل التي كان عليها إنرايت. لقد صارع هذا الشاب الإدمان على الكحول لفترة من الزمن، وقد أخبر المحققين أن زجاجة الويسكي لم تشرب نفسها بنفسها. ولكن مهما كانت حالة الثَّمل عند إنرايت، فإن مشروب الويسكي لم يكن شرابه المسكر الوحيد. وبالإضافة إلى زجاجة المشروب الفارغة، عثرت الشرطة مع إنرايت على مفكرة شخصية صغيرة سوداء اللون امتلأت صفحاتها "بمشاعر قوية معادية للمسلمين". وتقول المصادر أن إنرايت في مفكرته شبّه المسلمين بالمجرمين، وناكري الجميل لما قُدّم لهم من مساعدة، وأنهم قتلة قذرون وعديمو الضمير"[4].

* * *

كان المناخ الاجتماعي والسياسي للعام ٢٠١٠م مناخاً خصباً لمشاعر الكراهية، حيث لم تتضاءل المشاعر المعادية للمسلمين بعد تسع سنوات من أحداث سبتمبر، في الوقت الذي كان يتوقع الكثيرون نقيض ذلك. وفي الواقع، كان الوضع أسوأ من ذي قبل بكثير – وحتى أسوأ من الأيام والأسابيع التي تلت الحادثة المأساوية. وتُظهر استطلاعات مركز بيو PEW للأبحاث أن تسعة وخمسين بالمائة من الأمريكيين كان لديهم آراء إيجابية تجاه المسلمين بعد شهرين فقط من انهيار البرجين التوأمين[5]. وفي شهر مارس (آذار) من ذات العام، وقبل أن يدخل مختطف الطائرة محمد عطا وأصحابه الإرهابيين البغيضين إلى أذهان الشعب، صرَّح خمسة وأربعون بالمائة من الأمريكيين بأن آراءهم عن المسلمين كانت إيجابية على نحو عام[6].

ولكن سرعان ما اتجهت الأمور باتجاه الجنوب، على الرغم من أن أعمال العنف التي قام بها المسلمون كانت في أدنى مستوياتها على نحو ملحوظ. وفي عام ٢٠٠٢م،

أظهر تقرير سنوي صادر عن مكتب التحقيق الفيدرالي FBI أن جرائم الكراهية ضد المسلمين ازدادت على نحو مذهل بمقدار ١٦٠٠ بالمائة؛ فقد سجلت ٢٨ حادثة في عام ٢٠٠٠، و٤٨١ حادثة بعد عامين[7]. وفي عام ٢٠٠٤، كان لدى واحد فقط من بين أربعة أمريكيين وجهة نظر إيجابية عن الإسلام. وحسبما جاء في استطلاع مركز بيو للأبحاث، فإن ستة وأربعين بالمائة كانوا يعتقدون بأن الإسلام كدين يشجع على العنف[8].

لم يكن مركز بيو المنظَّمة الوحيدة التي لاحظت نزعة تصاعدية؛ إذ قامت القناة الإخبارية أيه بي سي نيوز ABC News في العام التالي بإصدار تقرير يظهر أن ٤٣ ٪ من الأمريكيين ما زالوا يعتقدون أن المسلمين يكنون القليل من الاحترام لمعتنقي الديانات الأخرى. وبحلول العام ٢٠٠٥م، كان ما يقرب من ستة أمريكيين من بين عشرة يعتقدون أن الإسلام دين يميل إلى العنف؛ كما أن نصف المشاركين بالاستطلاع كانوا ينظرون إلى المسلمين نظرة دونية[9]. وعلى مدى خمس سنوات، انعكست الأرقام تماماً– حيث إن تلك النسبة من الأمريكيين الذين كانوا ينظرون إلى الإسلام على نحو إيجابي أصبحوا يتبنون رأياً مناقضاً كلياً.

لم يطرأ أي تغيير مع انقضاء العام ٢٠٠٦م على حالة عدم الارتياح التي يُكنّها الأمريكيون تجاه المسلمين. وقد أظهر استطلاع للرأي أجرته صحيفة الواشنطن بوست أنه ومع دخول الحرب في العراق عامها الرابع، تكونت لدى نصف الأمريكيين نظرة سلبية عن الإسلام[10]. وفي العام ٢٠٠٨م، ومع مجريات الانتخابات الرئاسية الأمريكية، تعرض المرشح الرئاسي الذي صبَّ اهتمام حملته على إنهاء الحرب الدائرة آنذاك إلى نكسة سببتها الحماسة المتنامية ضد المسلمين. حيث أصبح المرشح الديمقراطي النحيل باراك أوباما – السياسي القادم من "مدينة الرياح" صاحب

الاسم المغمور، والخلفية التي يمكن تتبّعها عبر إندونيسيا وكينيا حيث موطن والده المسلم – هدفاً سهلاً لأولئك الذين كانوا يبحثون عن تسويق سيناريو معادٍ للمسلمين. فقد قام معارضو المرشح الرئاسي ذي السبعة والأربعين عاماً، والذي سوف يصبح أول مواطن من أصول إفريقية قائداً عاماً للقوات المسلحة، بتصنيفه على أنه مسلم (وكانوا يقصدون الإساءة من وراء هذا الوصف غير الدقيق)، الأمر الذي فاقم من الحيرة لدى بعض أوساط الناخبين الذين كانت تساورهم الشكوك أصلاً. لقد كان المناخ السياسي حرجاً للغاية؛ مما جعل المرشح المسيحي أوباما يأخذ حذره حيال أي ظرف قد يفسره بعضهم على أنه انتماء للإسلام. ففي مدينة ديربورن في ولاية ميشيغان، قام المسؤولون عن حملة المرشح أوباما بإزاحة امرأتين مسلمتين كانتا ترتديان الحجاب من جلسة تصوير مع الرئيس المرتقب. ومن المؤكد أن أية زيارة يقوم المرشح بها إلى مسجد ما، كانت ستثير احتجاجاً شعبياً شديداً لدى معارضيه. وكما لاحظ جون اسبوزيتو، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة جورج تاون، فإن حساسية الحملة المفرطة تجاه هذه القضية تشبه حالة النكران التي سادت لدى المتهمين بالتعاطف مع الشيوعية إبان الحرب الباردة: "أنا لست مسلماً ولم أكن كذلك قط." وسواء أكان الأمر مقصوداً أم لا، فإن عبارة الرئيس المرتقب ترسخ الفرضية بأن كون المرء مسلماً هو أمر مستهجن[11]. وفي ذلك العام، وصلت موجة الخوف من الإسلام إلى شواطئ القارة الأوروبية. وقد أصدر مركز بيو دراسة تظهر أن الآراء الإيجابية تجاه المسلمين كانت ضئيلة ومتباعدة داخل القارة، فقد أظهر استطلاع للرأي أن ٥٠٪ من المشاركين الإسبان والألمان يتبنون آراءً سلبية تجاه المسلمين، كما يشعر ٤٦ ٪ من المواطنين البولنديين، و٣٨٪ من الفرنسيين بذات الشعور.

* * *

ويعد كلٌّ من التعصب والتمييز ضد الآخر من القضايا التي تحتل حيزاً كبيراً في التاريخ. إذ لطالما تعاملت المجتمعات في أوروبا وأمريكا الشمالية على نحو قبيح على مدى تاريخها، مع قطاعات من السكان لم تكن تشعر بأنهم حقاً جزء من النسيج الوطني الأساسي. ويعتبر رهاب الأجانب – أي الخوف أو الكراهية الشديدة للغرباء – من الأسباب الرئيسة للكثير من هذا التعصب، إن لم يكن لكلِّه.

يَرى الكثيرون أن مصطلح "الأجانب" يجري استخدامه ليصف فريقاً من الناس، لا يُعدّون جزءاً من المجموعة التي تُطلق هذا التعبير؛ إذ يُصَنّف الأجانب على أنهم دُخلاء، قدموا من بلدان أخرى ويتبنون قيماً وثقافات مختلفة. وعلى سبيل المثال، يُعدُّ الشعور السائد المتعلق بالمسلمين لدى الكثيرين من اليمين الأمريكي على أنهم أناس غير مرحب بهم في "بلدنا"، ويستند هذا الشعور القومي المتصلب والحانق على فرضية بأن المسلمين مهاجرون، وأن الدين الإسلامي لا يُعدّ نظاماً عقائدياً لا حدود له، بل إنما هو دين نشأ من أماكن بعيدة، وقام، مع انتقال السكان ما بين المغرب إلى البحرين، بغزو الولايات المتحدة.

لا شك أن كثيراً من المسلمين في الولايات المتحدة وأوروبا ينحدرون من بلدان أخرى؛ إذ تؤكد الإحصائيات هذا الأمر. ففي العام ٢٠٠٥م، زاد عدد الناس من البلدان ذات الغالبية المسلمة الذين حصلوا على الإقامة الدائمة في الولايات المتحدة –حوالي ٩٦٠٠٠ – وذلك أكثر من أي عام خلال العقدين السابقين[12]. وتشير التقارير الصادرة عن مركز بيو للأبحاث أن أكثر من ٦٤,٥ بالمائة من المسلمين في الولايات المتحدة هم مهاجرون من الجيل الأول. في فرنسا، وفي منتصف العام ٢٠١٠م، كان من المتوقع أن تصل نسبة المسلمين إلى أكثر من ثلثي مجموع المهاجرين الجدد، وإلى أكثر من الربع في المملكة المتحدة[14]. هذه الأرقام تنذر بالخطر لدى

البعض، كأمثال مايكل إنرايت، الذين ينظرون حتماً إلى هذا الفريق على نحو سلبي ومهدِّد. وتتجلى مخاوفهم من الشعوب المهاجرة بمواقف عنصرية صريحة. وقد أوضح دانييل بايبس Daniel Pipes – وهو معلق سياسي أمريكي محافظ ويعد عند الكثيرين عميد ظاهرة الخوف من الإسلام في الولايات المتحدة – هذا التقاطع المتعلق بالعنصرية ضد المهاجرين والخوف من الإسلام على نحو جلي في مقالة كتبها لمجلة الناشيونال ريفيو *National Review* في العام ١٩٩٠م:

> إن المجتمعات الأوروبية الغربية ليست مستعدة للهجرة الضخمة المتمثلة بالشعوب الداكنة البشرة التي تطبخ أطعمة غريبة ولا تحافظ تماماً على المعايير الجرمانية في النظافة ... يقوم جميع المهاجرين بجلب عادات وآراء غريبة، ولكن العادات التي يجلبها المسلمون هي الأكثر إزعاجاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المسلمين هم الفريق الأكثر مقاومة للاندماج[15].

ومن هنا، فإن الأمر لم يكن مفاجئاً أنه وبعد سبع سنوات على أحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول)، قامت مؤسسة رونيميد تراست Runnymede Trust بإدراج العِداء العنصري للهجرة كواحد ممن تراها "السمات السبعة لظاهرة الخوف من الإسلام".

لقد انتقد العديد من الناس الإسلام والمسلمين للأسباب التي ذكرها بايبس؛ إذ يعتقد هؤلاء أن المهاجرين ليسوا قادرين على التكيف مع ثقافات البلدان التي ينتقلون إليها. ويستند هذا الأمر إلى الفكرة الخاطئة التي تقول إنَّ الولايات المتحدة كانت تنتمي تاريخياً إلى مجموعة محددة من الناس، ممن يعتنقون نظام قيم أساسي. وبما أنه لا يوجد في الولايات المتحدة دين رسمي، أو نظام طبقي، أو مجموعة شاملة من المبادئ الأخلاقية؛ فإنه من غير الممكن أن نتخيل أن المسلمين، أو أي فريق آخر قد يرفض شيئاً كهذا. ومع ذلك، فإن القيم الاقتصادية الرأسمالية التي تتداخل مع المثل

الاجتماعية تولّد الشكوك بأن الأقليات الإثنية، والعرقية، والدينية تريد أن تستغل الحريات وفرص الازدهار التي تعد سمات أمريكية أو أوروبية.

وتستند المخاوف من الأجانب أيضاً إلى الافتراضات الجغرافية التي أصبحت – على نحو متزايد – غير واضحة وغير ذات صلة تماماً؛ إذ يُعدُّ المسلمون من الأمريكيين والأوروبيين – أولئك المولودون في الولايات المتحدة وبلدان مثل فرنسا وبريطانيا – من وجهة نظر من يتبنى ظاهرة الخوف من الإسلام، على أنهم أجانب تماماً حالهم كحال المهاجرين. وحتى وإن أصبح هؤلاء المسلمون مواطنين عن طريق التجنيس أو الولادة، فإنهم يُصنَّفون ضمن الدائرة الأكبر من الغرباء التي تُعدُّ معتقداتهم الدينية المختلفة أسباباً وجيهة لجعلهم منبوذين. ويُنظر إلى المسلمين الأمريكيين والأوروبيين على أنهم مسلمون فقط، أي أجانب ممن تُعد هويتهم الدينية الهوية الرئيسة، ومن ثمَّ يجري تصويرهم على أنهم أقل شأناً من الأوروبيين والأمريكيين غير المسلمين.

إن عملية تقسيم الهويات بهذه الطريقة، أي إظهار أحد جوانب الشخص بصرف النظر عن الجوانب الأخرى، هو أمر ذو طابع سياسي صريح؛ حيث استطاع بعض قادة العالم بالدفع بأجندات بغيضة عن طريق تأليب الغالبية من السكان ضد الأقليات، والمبالغة في إظهار الاختلافات بينهم.

وفي الفيلم الوثائقي المناهض للعنصرية وهو بعنوان "لا تكن فاشلاً" *Don't Be a Sucker*، وهو عبارة عن فيلم مدته خمس عشرة دقيقة من إنتاج وزارة الحرب في العام ١٩٤٧م، ويبحث في المناخ الخطابي المسبب للشقاق، الذي ساعد في صعود ألمانيا النازية، نشاهد فيه شخصية محرِّض الغوغاء، وهو يعتلي منبراً على زاوية أحد الشوارع الأمريكية منتقداً ما أسماه "واقع الزنوج والأجانب". كما يقوم بمهاجمة المهاجرين،

واليهود، والكاثوليك، والماسونيين، والسود. ويقوم الرجال الموجودون في الحشد بالإيماءة برؤوسهم كإشارة على موافقتهم على ما يقول، إلى أن يصبحوا هم أنفسهم في دائرة الانتقاد. ويشرح رجل مهذب وعذب الكلام من هنغاريا لشاب يشاهد هذا التقريع قائلاً إن ذات الأمر قد حصل في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية. ولكن المجموعات التي يجري انتقادها في هذه المرة فقط قد تغيرت. وأضاف قائلاً إن "النازيين كانوا يعلمون أنهم لم تكن لديهم القدرة الكافية لكي يتغلبوا على دولة موحدة، لذلك لجأوا إلى تقسيم ألمانيا إلى مجموعات صغيرة. فقد قاموا باستخدام التعصب كسلاح عملي لكي يصيبوا الأمة بالشلل. نحن كبشر لا نولد حاملين للتعصب، ولكن التعصب يجري صنعه لنا بواسطة شخص يريد منا شيئاً ما".

كان أدولف هتلر يريد شيئاً، ألا وهو القوة. وكان يعلم أن الشعوب في ألمانيا سوف تبقى خانعة وجاهلة في ظل حالة دائمة من الخوف. وبحلول العام ١٩٣٣م، سبّب ما يعرف بالكساد العظيم البطالة لما يقارب الستة ملايين ألماني. كان الرجال تائهين في الشوارع، لا يعرفون كيف يعيلون أسرهم عن طريق الإعانات الحكومية البسيطة، التي بالكاد تسد الرمق لمدة ستة أشهر، الأمر الذي زاد الطين بِلّة. كان الكثيرون يعتقدون أن حالة الهذيان هذه سوف تستمر إلى ما لا نهاية، والانتحار هو السبيل الوحيد أمام هؤلاء الـ ٢٢٤٠٠٠ من المسحوقين والمرهقين؛ لكي ينهوا حالة الكرب التي لا تحتمل؛ وكان البؤس شاملاً تقريباً وكانت ألمانيا أمام طريق مسدود يتسم بالمرارة.

وعندما تقلد هتلر زمام السلطة كمستشار، كان عليه أن يتعامل مع شعب أشبه بالهياكل العظمية، وحركة نازية متعاظمة. استغل هتلر منصبه ونفوذه لإطلاق حملة الخوف التي أدت إلى المحرقة Holocaust. كما ألقى باللائمة على اليهود لما أصاب

ألمانيا من محن؛ وذكر أن اليهود هم من سبّب خسارة ألمانيا خلال الحرب الكبرى؛ وبحسب رأيه، فإن معاهدة فرساي Treaty of Versailles، والتضخم الكبير في العام ١٩٢٣م هي عبارة عن مبادرات قادها يهود بغية إصابة ألمانيا بالعجز؛ وفي كتابه الذي عنوانه "كفاحي" *Mein Kampf*، كتب هتلر "يقبع الشاب اليهودي وهو ينتظر لساعات لغرض ما، وهو يتجسس على الفتاة الألمانية الآمنة التي يخطط لإغوائها. إنه يريد أن يلوّث دمها ويبعدها عن حضن شعبها. اليهودي يكره العرق الأبيض، ويريد أن يحطّ من مستواه الثقافي؛ وذلك لكي يتمكن اليهود من السيطرة".

كان اليهود يُجبَرون على الجلوس على مقاعد مخصصة لهم في الحافلات، والمطاعم، ومقاعد الحدائق. وكان طلاب المدارس اليهود يُضايقون، ويتعلم الشبان الألمان كيف يكرهون زملاءهم في الصف من اليهود. ومع إصدار قوانين نوريمبرغ Nuremburg في العام ١٩٣٥، فَقَد اليهود حقهم بأن يكونوا مواطنين ألمان؛ حيث لم يكن يُسمح لهم بالزواج من مواطنين من غير اليهود، كما حرموا حتى من الخدمات الطبية الأساسية التي يقدمها الأطباء والصيادلة. لقد بلغت معاداة السامية، كعنصرية علمية آفاقاً جديدة؛ إذ رأى هتلر أن الإبادة المنهجة لستة ملايين يهودي على يد النظام النازي خلال الحرب العالمية الثانية هو "الحل النهائي للقضية اليهودية".

* * *

كان العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين مشحوناً تماماً بالتعصب والتمييز العنصري، ورأى الكثير من علماء الاقتصاد والمحلِّلين أن الأزمة المالية التي سادت أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أو ما سمّاها بعضهم "الركود العظيم،" هي النكسة الاقتصادية الأكبر منذ الكساد العظيم الذي حدث في ثلاثينيات القرن العشرين؛ حيث تعاظمت فقاعة الإسكان إلى درجة أدت إلى الانفجار، مسببة

انهياراً في قيمة الأوراق المالية المتعلقة بتسعير العقارات الأمريكية. وعمدت الحكومة الأمريكية إلى إنقاذ البنوك الغارقة في ديونها، كما تراجعت صناعة السيارات، وتدهور سوق الأوراق المالية، وقام المقرضون الجشعون بالاحتيال على ثروات المواطنين الآمنين. ونشر صندوق البنك الدولي تقريراً يشير إلى أنه بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٩م تعرضت البنوك الأوروبية والأمريكية إلى خسارة تجاوزت التريليون دولار، جرّاء الأصول عالية المخاطر والقروض المعدومة. وبحلول شهر أكتوبر (تشرين الأول) من العام ٢٠٠٩م كانت نسبة البطالة في الولايات المتحدة قد ارتفعت إلى ١٠,١ ٪.

وقد سببت حالة عدم الاستقرار الاقتصادي توترات اجتماعية، تماماً كما حدث قبل سنوات؛ ما أدَّى إلى خلق الأساس لنشوء الوطنية ومشاعر العداء ضد الآخر، فقد أصبح المسلمون مصدراً للقلق المجتمعي، واستغلت الأحزاب اليمينية، التي تعرف تماماً تأثير الخوف، الأوقات الحرجة لمصلحتها. ومع الجدل القائم حيال بناء مركز للمجتمع الإسلامي في شارع بارك ٥١ Park 51، قامت هذه الأحزاب ببث أحدث التعابير المخيفة في سلسلة طويلة من الكلمات المفزعة؛ بهدف إقامة انقسامات مجتمعية حادة؛ ومن ثمَّ، انضمت عبارة "مسجد الطابق صفر" إلى العبارات الأخرى مثل:"أوروبا العَربيّة"، و"خبراء الموت"، و"الشريعة الزاحفة"، و"الجهاد المتسلِّل"، و"أطفال الرعب"، وهي عبارات درجت من دون عناء إلى الخطاب السياسي العام، وشجعت على الخوف من دون أن تكلف الأحزاب اليمينية الكثير من الجهود المتضافرة. ولم يكن موقع تشييد البناء المقترح هو ما أثار مشاعر المعارضين، فقد كان هناك أيضاً مقاومة شرسة على حد سواء حيال خطط لبناء مراكز إسلامية ومساجد في مواقع أخرى عدَّة، بما فيها ولايات تينيسي، وكاليفورنيا، وكينتاكي، ووايومينغ، وأوهايو. لقد مثّل الخوف من الشريعة الإسلامية، الذي نشر الذعر عند الناس من

خلال أحداث واسعة النطاق، ذروة جديدة من الأوهام التآمرية لدى أوساط متنامية كانت عازمة على الهتاف، على طريقة الفيلم الكرتوني الدجاج الصغير *Chicken Little*، بأن السماء سوف تسقط بسبب المسلمين. وبحسب رأي قس مسيحي متطرف من ولاية فلوريدا، فإن إحراق نسخ من القرآن هو الإجراء العقلاني الوحيد للرد على جماعة دينية تُتَّهم من جهة البعض أنها اخترقت محرك البحث غوغل عن طريق تبديل الحرف إي (e) بالهلال الإسلامي؛ حيث يرى هؤلاء أن المسلمين يستولون على العالم شيئاً فشيئاً.

وفي العام ٢٠١٠م، ذكرت القناة الإخبارية إيه بي سي نيوز وصحيفة الواشنطن بوست أن نسبة الأمريكيين الذين يتبنون وجهة نظر إيجابية عن الإسلام كانت عند مستواها الأدنى منذ أكتوبر (تشرين الأول) من العام ٢٠٠١م. حيث ذكر أنَّ ٣٧ ٪ من الأمريكيين فقط لديهم نظرة إيجابية عن الدين الإسلامي[16]. وقد كشفت مجلة التايم *Time* عن دراسة أُجريت في ذات العام، تشير إلى مزيد من الأدلة لتنامي ظاهرة التعصب. وأظهرت الإحصاءات أن ٢٨٪ من المشاركين كانوا يرون أن المسلمين يجب ألا يسمح لهم الوصول إلى مناصب في المحكمة العليا، ورأى ثلث المشاركين أن أتباع الدين الإسلامي يجب ألا يسمح لهم بالترشح لمنصب الرئاسة. وكان ٢٥ بالمائة من الشعب يعتقدون أن من استولى على المكتب البيضاوي في البيت الأبيض، أي باراك أوباما، هو نفسه مسلماً[17].

وفي العام ٢٠١١م، جاء مقتل بن لادن – العقل المدبر البغيض لأحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) – ليتيح الفرصة لإحداث تغيير جذري في نظرة الناس عن المسلمين، ولكن الغريب في الأمر أن ذلك لم يحصل. وعندما جاءت الأخبار لتعلن نبأ مصرع قائد تنظيم القاعدة على يد القوات الأمريكية، أذاعت وكالة

الأخبار الدينية Religion News Service أن المشاعر المعادية للمسلمين قد ازدادت[18]. وعلاوة على ذلك، فقد ذكرت وكالة الأخبار سي إن إن CNN أن نصف الأمريكيين قد يشعرون بعدم الارتياح لوجود امرأة ترتدي البرقع، أو لمشروع بناء مسجد في حيِّهم، أو عند رؤية رجل مسلم يصلي في أحد المطارات؛ وذكر ٤١٪ أنهم يشعرون بعدم الارتياح في حال كان أحد مدرسي المرحلة الابتدائية في منطقتهم مسلماً[19].

وإنه من غير المعقول أن يكون الوجود الكثيف في أعداد الإرهابيين المسلمين هو ما أدى إلى حالة التعبير عن الخوف، فببساطة لم يكن هناك الكثير من هؤلاء الإرهابيين. كما أن الاعتداءات الإرهابية لم تكن قد تحولت بعد إلى وباء. وقد كشفت دراسة أجراها مركز ترايانغل المتخصص في الإرهاب والأمن القومي Triangle Center on Terrorism and Homeland Security في فبراير (شباط)،٢٠١١م، أنه ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر، نجح أحد عشر أمريكياً مسلماً في تنفيذ هجمات إرهابية في الولايات المتحدة. وفي غضون تسع سنوات، قاموا بقتل ٣٣ شخصاً. وبالمقارنة، نجد أن البلاد شهدت ١٥٠,٠٠٠جريمة قتل في ذات المدة الزمنية[20]. وفي عالم يزيد فيه عدد المسلمين عن الألف مليون مسلم، وتُتهم الأكثرية منهم بتبني تطلعات تتميز بالعنف، نجد أن عدد الاعتداءات الفعلية ضئيل على نحو لافت. وكما جاء على لسان تشارلز كيرزمان، أستاذ علم الاجتماع في جامعة نورث كارولاينا في تشابيل هيل، في كتابه وهو بعنوان "الشهداء المفقودون" *The Missing Martyrs*، وفيه ما يدل على وجود توجه عالمي نحو الانخفاض في العدد الإجمالي للمجندين الإرهابيين؛ حيث يقول: "لقد تمكن الإرهابيون الإسلاميون على مدار العالم من تجنيد أقل من شخص واحد من بين ١٥,٠٠٠ مسلم خلال ربع القرن المنصرم، وأقل من شخص واحد من بين ١٠٠,٠٠٠ مسلم منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر"[21].

* * *

إذاً، وبناءً على ما تقدم، ما السبب وراء هذا الازدياد المطّرد والمستمر في المشاعر المعادية للمسلمين؟ ولماذا يصل الخوف، والارتياب، والحقد إلى أعلى مستوياته على الإطلاق بعد عشر سنوات من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م؟

وكما يتضح، فإن التشنج على مدى عقد من الزمن من ظاهرة الخوف من الإسلام التي هزت الرأي العام الأمريكي، إنما هو نتاج لاتحاد متماسك ومترابط لتجار الخوف ممن يمثلون اليمين؛ حيث عملوا جاهدين منذ اللحظة التي ضربت فيها الطائرات ناطحتي السحاب بهدف إقناع مواطنيهم، بأن التأثير الخطِر للمسلمين في الغرب يتعاظم. إن الصناعة التي يمتهنها المدونون المتعصبون، والسياسيون العنصريون، والزعماء المتطرفون دينياً، والنقاد في شبكة فوكس نيوز الإخبارية Fox News، والصهاينة المتدينون، إنما هي صناعة الكراهية: أي صناعة الخوف من الإسلام. حيث يلاحظ جيمس زغبي James Zogby، مدير المعهد العربي الأمريكي، أن "حدّة (الخوف من الإسلام) لم تفتُر وبقيت قريبة جداً من السطح، وعلى استعداد لكي تُستغل في أي لحظة"[22]. ويتفق خوان كول Juan Cole، مؤلف كتاب إشراك العالم الإسلامي *Engaging the Muslim World*، وأستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث وجنوب آسيا في جامعة ميشيغان، مع هذا الرأي؛ حيث يقول إنه "جرى توصيل الرسالة للأمريكيين لكي يستجيبوا بهذه الطريقة، عن طريق النخبة السياسية الأمريكية، ووسائل الإعلام العامة، ومصالح خاصة محدَّدة"[23].

وخلافاً لمعظم الصناعات؛ حيث يتم تصنيع المنتجات تحت مظلة الشركات، فإن صناعة الخوف من الإسلام مختلفة؛ فهي تتميز بكونها أكثر دينامية ومرونة، وبأجزاء متحركة ومتنوعة غير مرتبطة بفرع واحد فقط. ومع ذلك، فإن مروجي هذه الصناعة يجولون بذات المنطقة، وهم مرتبطون مع بعضهم بعضاً بوسائل مهمَّة كثيرة.

obeikandl.com

وبعيداً عن إضفاء الشرعية على أعمال بعضهم البعض؛ الأمر الذي يُعدّ سمة أساسية للطريقة التي يعملون بها، فقد عملت صناعة الخوف من الإسلام على تسخير قوة الإنترنت لتوسيع شبكاتها الصغيرة في المنظمات الوطنية والعالمية. وفي غالب الأمر، عندما تقوم مجموعة صغيرة بالتحدث بإسهاب متبنِّيةً خطاباً معادياً للمسلمين، ويتسم بالكراهية، فإنها تنمو على مر الزمن، وتولّد في نهاية المطاف عدداً من المجموعات الثانوية التي تعمل تحت ذات القيادة أو أخرى مشابهة. ومن الأمثلة على ذلك، المدونة باميلا جيلير Pamela Geller التي أنشأت جماعة ناشطة معادية للمسلمين تحت عنوان "أوقفوا أسلمة أمريكا" Stop Islamization of America (SIOA). ويُعدُّ هذا الفصيل من المحرّضين الذي جرى تشكيله على أنه امتداد للمنظمة الأم التي حملت اسم "أوقفوا أسلمة أوروبا" Stop Islamization of Europe (SIOE). وقد أثارت كلتا المجموعتين المشاعر المعادية للمسلمين في كلتا القارّتين، ومن ثم اتحدتا في يونيو (حزيران) من العام ٢٠١٠م لصالح مسيرة المطالبة بالشهرة في مدينة نيويورك ضد الخطط الرامية إلى بناء مركز المجتمع الإسلامي في شارع بارك ٥١. وعلى أمل الدفع بمصنع الخوف خطوة إلى الأمام، فقد أعلنت كلاً من جماعة "أوقفوا أسلمة أمريكا"، وجماعة "أوقفوا أسلمة أوروبا" عن إنشاء اتحاد في العام ٢٠١١م، وأسَّستا ما يسمى "أوقفوا أسلمة الأمم" Stop Islamization of Nations (SION).

وفي بعض الحالات، تقوم العلاقات المالية بإنشاء الروابط في الصناعة، فالعلاقات التي تربط صاحب العمل بالموظفين – كتلك التي يمثلها المدون الأمريكي روبرت سبنسر Robert Spencer ورئيسه في العمل، ديفيد هوروويتز David Horowitz– تخلق نوعاً من البيئة بحيث يُتوقع من الموظف أن يساهم على نحو فعال، في خطاب معادٍ للمسلمين؛ بهدف الحصول على الراتب الشهري، وفي حالة سبنسر، فإن ذلك

الراتب مغرٍ للغاية. ويكتب سبنسر يومياً مدونات لصالح مدوَّنة بعنوان "مراقبة الجهاد" *Jihad Watch*، وهي أحد الأذرع لمركز الحرية التابع لديفيد هوروويتز David Horowitz Freedom Center، كما يكتب على نحو منتظم لصالح مجلة فرونتبيج *FrontPage Magazine*، وهي صحيفة سياسية إلكترونية يديرها هوروويتز أيضاً. وكلا الرجلين يشكلان ما يسميه هوروويتز "عائلة صغيرة، ولكنها فعالة تماماً"[24].

ولا شك أن كلَّ من يُسهم في صناعة ما عن طريق شراء منتجاتها، فإنما يفعل ذلك بسبب الحاجة نوعاً ما لذلك المنتج. ولا يختلف أولئك الذين يموّلون صناعة الخوف من الإسلام عن هذا السياق؛ حيث نجد من خَلْف أفراد من أمثال ديفيد هوروويتز وروبرت سبنسر شخصيات أيديولوجية وأكثر غموضاً، ممن يرون في تعزيز المشاعر المعادية للمسلمين وسيلة ضرورية، لكسب اليد العليا في الحرب الكونية التي تدور رحاها على بعد آلاف الأميال في الضفة الغربية. كما أن الأنصار المتشددين لإسرائيل في سعيها لتوسيع نطاق عملها داخل الأراضي الفلسطينية، هم في الغالب الداعمون الرئيسيون لجدال المثقفين المزيفين الذي تنشره صناعة الخوف من الإسلام. ومن وجهة نظر هؤلاء، فإن ما يرونه على أنه خطر الإسلام والمسلمين يخلق مناخاً، من شأنه أن يخفف من مقاومة سياساتهم ضد الفلسطينيين، ومن ثمَّ، فإن الكثير من أموالهم تقوم بتمويل حملات الدعاية الضخمة ضد الإسلام، كما تدعم أعمال أولئك الرافضين المعادين للمسلمين. وهكذا، نجد أنه ليس من قبيل الصدفة أن الأشخاص الذين يُدمون فعلياً أنوف المسلمين، هم الأشخاص أنفسهم الذين يدعمون بحماسة وبحرارة سياسات إسرائيل الاستيطانية. وبصرف النظر عن معتقداتهم الدينية أو السياسية، فإن جيوبهم تستفيد من خطابات كهذه.

وتشكِّل الدوافع الأيديولوجية جذوراً أعمق من الصهيونية اليمينية، حيث يقوم أجزاء من المجتمع المسيحي الإنجيلي أيضاً بنسج قصصهم الإيمانية على أساس مواجهة دينية مع المسلمين؛ إذ نجد الخطباء اللاّمعين في المنابر في جميع أنحاء البلاد، وهم يقومون بحقن الخوف في تجمعاتهم تجاه دين عالميٍّ منافس. وفي حين جاء الحماس للتوجه الأَوَّلي لليمين المسيحي المعادي للمسلمين (والمعادي للآخر) من أناس مثل جيري فالويل Jerry Falwell، وبات روبرتسون Pat Robertson، وجون هاجي John Hagee، إلاّ أنّ جيلاً جديداً من المؤيدين لإسرائيل، والملوّحين بالإنجيل "المقاتلين من أجل الحرية" قد خرج من بين صفوفهم؛ حيث استطاع هؤلاء – عن طريق توجيه رسالتهم إلى التجمعات التي ترتدي الجينز الأزرق والمهتمة بفِرَق الإنشاد أيام الأحد – أن يجذبوا أعداداً كبيرة من الأتباع من الشباب الذين لا يشتركون فقط بإيمانهم في الحقيقة المطلقة للمسيحية، بل من هم متحمسون أيضاً لأخذ العظة خارج أبواب الكنيسة إلى الشوارع، فالأمر حسب رؤيتهم هو أكثر من مجرد اعتقاد، والمطلوب هو القيام بعمل ما.

وفي تحالف ثلاثي غريب، كانت الجماعات المسيحية المحافظة قد ارتبطت مع المعسكر الداعم لإسرائيل، ومع فصائل من حزب الشاي Tea Party [25]. وكان "انجيليّو الشاي" teavangelicals كما جرى وصفهم، عبارة عن جماعة مؤثرة وصاخبة، وكانوا على الخطوط الأمامية من ذعر الشريعة الذي لايزال يسيطر على الأمة والعالم. وعن طريق الإصرار على أن الشريعة الإسلامية تقوم بالاستيلاء على أمريكا، وأن الديانة المسيحية هي الطريق الوحيد للنجاة، وأنّ على الفلسطينيين أن يتخلوا عن أراضيهم لليهود، عن طريق ذلك قاموا بزرع جماعات من الناشطين المحليين في الولايات الخمسين جميعها، والضغط على المسؤولين المنتخبين لتطبيق التشريعات التي من شأنها أن تمنع ما يسمّى الخطر الإسلامي البارز.

لقد جذب الصخب الناجم عن حملتهم الكثير من الاهتمام، إلى درجة أنّ أفراداً بارزين من أمثال المتحدث السابق باسم البيت الأبيض نيوت غينغريتش Newt Gingrich الذي اعتقد بوجود ذعر كهذا، والذي قام باستخدامه كجزء رئيسٍ من برنامجه في الحملة لصالح المرشح الرئاسي الجمهوري في العام ٢٠١٢م. وقد أظهر تبني غينغريتش لمقترحات معادية للمسلمين ما كان يعرفه الكثيرون مسبقاً، ولكن، وبسبب التمسك بصرامة الصواب السياسي، لم يتفوهوا به: الخوف من الإسلام هو إلى حد كبير تركيبة من اليمين السياسي. وقد أظهرت استطلاعات كثيرة صحة ذلك، حيث أشار استطلاع أجرته مجلة نيوزويك Newsweek في العام ٢٠١٠م أن ٥٢ ٪ من الجمهوريين كانوا يعتقدون أنّ باراك أوباما كان يتعاطف مع الأصوليين الإسلاميين، وأنه كان يريد أن يفرض قانون الشريعة[26]. وبعد عامين تقريباً، لم تتغير تلك المشاعر لدى الناخبين لصالح الحزب الجمهوري في كلٍّ من ولاية ألاباما، وولاية ميسيسيبّي. وكانت الدورة الانتخابية للعام ٢٠١٢م تستعد، وجاءت معها الصور النمطية المألوفة، والادعاءات المزيفة، ورسائل البريد الإلكتروني الفيروسية التي تزعم أنّ أوباما مسلم. وأظهر استطلاع السياسة العامة في شهر مارس (آذار) ٢٠١٢م أن ٥٢ ٪ من الجمهوريين في ولاية ميسيسيبي كانوا يعتقدون أن الرئيس مسلم؛ و٣٦ ٪ لم يكونوا متأكدين؛ و١٢ ٪ من المتأرجحين أخذوا بكلامه على أنه كان مسيحيّاً. وفي الولاية المجاورة، ألاباما، كان نجاح أوباما أفضل قليلاً؛ حيث ذكر خمسة وأربعون من الناخبين لصالح الحزب الجمهوري أنّ أوباما مسلم، و٤١٪ لم يكونوا متأكدين، و١٤ ٪ كانوا يعتقدون أنه مسيحي. وسارت وجهات النظر الخاصة بالدّين جنباً إلى جنب مع تلك المتعلقة بالعرق؛ حيث ذكر واحد من أربعة مشاركين أن زواج والدا أوباما المختلف الأعراق، لا بد أنه لم يكن قانونياً[27].

وفي سياق مماثل، ذكرت مؤسسة بروكينغز Brookings Institution في العام ٢٠١١م أن ثلثي الجمهوريين، والأمريكيين الذين ينضوون تحت مظلة حركة حزب الشاي، والأمريكيين الذين يثق معظمهم بوكالة أخبار فوكس نيوز Fox News، يتفقون بأن قيم الإسلام هي على خلاف مع القيم الأمريكية[28]. أما غالبية الديمقراطيين على الصعيد الآخر، فلم يتفقوا مع هذا الرأي.

وكما هو حال الانقسام بين الأحزاب السياسية، فقد وجد الحزب الجمهوري أن القضية الخلافية قدّمت قاعدة مفيدة، يمكن الاستفادة منها كميزة على خصومهم الديمقراطيين الذين صوروهم على أنهم ليسوا صارمين حيال الإرهاب. وطالما كان يُعتقد أن المشاعر المعادية للمسلمين تُفيد في جذب الناخبين، فسوف يستمرون في الضرب على هذا الوتر في دوامة لا تنتهي من حملة التخويف.

كان التأثير الخالص للمعتقدات السلبية عن المسلمين خطِراً. فقد أثارت صناعة الخوف من الإسلام فزعاً قاتلاً بحيث امتدّ ليصل إلى خاتمته المنطقية الوحيدة: العنف. إنّ البيئة التي أنتجت مايكل إنرايت والسلسلة الطويلة من الاعتداءات، وجرائم الكراهية ضد المسلمين هي ذات البيئة التي أنتجت مأساة أكثر دموية للغاية فيما بعد في ٢٠١١م.

وفي مدينة أوسلو في النرويج، قام رجل أبيض، يبلغ الثلاثين من العمر، وممن يؤمنون بالقومية، ويتملّكه الهاجس لما يراه أنه تنامي نفوذ الإسلام، بارتكاب مجزرة قَتل فيها ٧٧ شخصاً، وجَرح الكثير من الآخرين. وكان من بين القتلى زعماء في الحكومة، ونشطاء شباب من حزب العمل Labor Party الذين عدَّهم القاتل على أنهم ساهموا بسياسات الهجرة المتراخية، وبـ "أسلمة" أوروبا. وقبل أن يبدأ بالحمّى الدموية، أرسل بريداً إلكترونياً لأصدقائه وداعميه، وأرفقه ببيانه المؤلَّف من ١٥٠٠

صفحة. وتخلّلت صفحات البيان مئات الإشارات إلى مروّجي الكراهية الذين يشكلون صناعة الخوف من الإسلام. وقد تبيّن أنّ كتاباتهم هي التي ألهمت رؤيته عن العالم، وولّدت داخل عقله المريض خوفاً شديداً؛ بحيث كان ردّه الوحيد مزيجاً قاتلاً من الوقود والسّماد، ووابلاً قاتلاً من رصاص دم دم dum-dum المتفجِّر.

* * *

وهذا الكتاب يتناول العالم المظلم لصناعة الوحش، فهو يبحث في حياة صناعة الخوف التي تعكف على تخويف الناس من الإسلام. ويُبيّن الكتاب أن ازدياد المشاعر المعادية للمسلمين مؤخراً في الولايات المتحدة وأوروبا، لم يكن نتيجة لمناخ من الشك كان قد تطور على نحو طبيعي، بل إنما هو نتاج جرى تغذيته على نحو منهجي ودقيق خلال العقد الماضي، وأنه وصل إلى الذروة المنشودة فقط الآن في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

إن النقاشات حول تعبير الخوف من الإسلام في السنوات الأخيرة سواء أكاديميّاً أو في الخطابات العامة، قد قامت بتحليل التعبير الجديد على نحو شامل، على أمل الوصول إلى تعريف مناسب ما. وعلى الرغم أنه من المهم في أي نقاش كهذا، أن نعرض- بوضوح - الأطر المعرفية التي تشكّل المناقشة، إلاّ أنه من السهل أن نصبح محاصرين في دوائر من الاشتقاقات لا لزوم لها. وسواء جرى تصنيف التعبير على أنه قلق اجتماعي، أو صدمة نفسية سبّبتها مجموعة من التجارب، فإن الخوف من الإسلام- في أبسط عباراته - هو الخوف من الإسلام والمسلمين. إنه ذلك الخوف الذي يؤدي إلى الكراهية، والعداء، والتمييز – وهي سمات ذكرتها مؤسسة Runnymede Trust؛ بهدف تعريف مفهوم الخوف من الإسلام في تقرير لها في العام ١٩٩٧م[29].

إنّ من يبدأ بإظهار هذه السمات القبيحة لا يفعل ذلك بدون بعض التحفيز، ومهما يكن الأمر مثبطاً للعزيمة أن نرى نمطاً من سوء السلوكيات الاجتماعية موجّهاً تجاه أية أقلية دينية، أو إثنية، أو عرقية، فإننا لا يمكن أن ننسى أن هذه السلوكيات، إنما هي تعبير عن سرطان متفشّي أعظم. إنه الخوف الذي يلحق الدمار بالذات الإنسانية الحصيفة في الطرف الآخر ويدفعها في اتجاه مخادع. إن دور جورج فالكونر George Falconer، أستاذ اللغة الإنجليزية، وبطل الرواية الذي لعب دوره كولن فيرث Colin Firth في فيلم "رجل واحد" *A Single Man* في العام ٢٠٠٩م يلخّص هذه التجربة:

> إن الخوف في النهاية هو عدونا الحقيقي، وهو الذي يسيطر على عالمنا، ويجري استخدامه كأداة للتلاعب بمجتمعنا. هكذا يروّج السياسيون للسياسات، وهكذا يبيعنا شارع ماديسون الأشياء التي لا نحتاجها. فكّر في الأمر. الخوف بأننا سوف نُهاجم، والخوف أن هناك شيوعيين يقبعون خلف كل زاوية، والخوف من أن دولة كاريبية صغيرة ما، لا تؤمن بطريقتنا في الحياة، تشكّل تهديداً لنا. الخوف أن ثقافة السود قد تستولي على العالم. والخوف من وِركيِّ المغنّي إلفيس بريسلي. حسناً، ربما يكون ذلك خوف حقيقي. والخوف من أن تخرّب رائحة فمنا الكريهة على صداقاتنا ... والخوف من أن نكبر ونصبح عجوزين ووحيدين.

حتى الرسالة الثانية للرسول بولس، فإنَّها تتضمن شيئاً ما، عن الطبيعة غير المنطقية، وغير العادية للخوف: "لأنّ الله لم يمنحنا روح الخوف؛ بل إنما روح القوة، وروح المحبة، وروح العقل السليم"[30].

إنّ عدداً قليلاً من الكُتَّاب والمثقفين يجهرون بالقول إن الخوف والقلق العام من المسلمين إنما هو ظاهرة مفبركة تماماً. وإنني لا أريد أن أسارع في كسر صفوفهم، وأخوض في أوساط ما هو بالتأكيد موقفاً لا يمكن الدفاع عنه. وكما أشير في الفصل الأول، فإن الأحداث العالمية في معظم الأحيان تصبغ عدسات إدراكنا، وتلوّن

وجهات نظرنا عن البشرية. وإنّ العنف من جانب المسلمين ليس استثناء، ومن ثمَّ، وإلى حد ضئيل، فإن طرح الأسئلة غير المريحة عن الإسلام قد يكون أمراً طبيعياً تماماً بعد ١١ سبتمبر، ٢٠٠١م. وبالمثل، وبقدر ما يبدو الآن الخوف الأحمر Red Scare غريباً لأولئك الذين عرفوا عن الحرب الباردة Cold War فقط من كتب التاريخ، والأفلام الوثائقية، والمواجهة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، والتوترات والمخاوف التي استشرت خلال تلك الفترة، إلاّ أن ما ذُكر كان حقيقة عند الكثيرين.

ولكن هذا الأمر هو عبارة عن شيء آخر؛ إنه يتعلّق بجهود متضافرة من جانب عصابة صغيرة من المصابين برهاب الأجانب، يقومون بتصنيع الخوف لتحقيق مكاسب شخصية. وهو عبارة عن تقديم وجهات نظر مروِّعة عن العالم على حساب جزء من السكان، وحتى إلحاق الضرر بهم. كما يتعلّق الأمر بالسعي لشلِّ الدوافع العقلانية للعقل البشري، وحقنه بجرعة مخدِّرة من الرعب، مكثَّفة جدّاً حتى الإدمان؛ بحيث نرى أنّ أولئك ممن يتّصفون بالخوف لا يستطيعون التوقف عن طلب المزيد.

هذه هي قصة تحت السطح، وهي من القصص التي غالباً ما تكون مكتومة بفعل الخفقات اليومية لذات الأشخاص الذين يجري الحديث عنهم في هذه الصفحات. إنها محاولة من جانبي لتصحيح ما أراه بمثابة تمثيل غير عادل، وغير متوازن عن الإسلام والمسلمين، من خلال لفت الانتباه إلى مجموعة صغيرة من المروّجين الذين يستفيدون من آلام الآخرين. وفي محاولة لإعادة صياغة سطر كتبه زاكاري لوكمان Zachary Lockman، أستاذ الدراسات الإسلامية والتاريخ في جامعة نيويورك، فإنني أتوقع من أن أولئك الذين ينظرون إلى العالم بطرق تختلف تماماً عن رؤيتي، أن يهتمّوا كثيراً بما سوف يأتي. إنني أسعد باعتراضاتهم؛ ولكن في حال وجدوا أنَّ ما أسرده مسلِّياً، فإنني سوف أشعر كما لو كنت قد ارتكبت ظلماً عظيماً[31].